المحاضرة التاسعة: الخطابة مدخل إلى الخطابة

اعتقد انه من الضروري ان نعرج على الخطابة قبل ان نتطرق للمناظرة حتى نتمكن من أن نضع الطلبة في السياق العام لباقي المحاضرات وللأمانة العلمية فأن كتاب المدخل الى فن المناظرة تأليف د/عبد الطيف سلامي و مراجعة واشراف /عبدالله حياة معرفي يعد مصدرنا الأساسي في ما سيأتي ذكره في هذه المحاضرات

يطرح مفهوم الخطاب حين نروم تعريفه مفهوميا مسألة مستعصية ذات صلة بالفرق بين النصّ (Texte) والخطابDiscoursفهل يحملان على معنى واحد أم ثمة اختلاف بينهما؟ (

هناك من الباحثين من يجعل المصطلحين النصّ والخطاب بمنزلة المترادفين بيد أن من يميز بينهما بشكل دقيق فالخطاب ذو صلة بالتلفظ) énonciationوالسياق التواصلي في حين يتميز النصّ بكونه مفصولاً عن هذا السياق بصورة كلية. وقد ميز ميشيل آدمM.Adam بينهما على هذا النحو الرياضي

.الخطاب = النصّ + ظروف إنتاجه

- .النصّ = الخطاب ظروف إنتاجه

فالخطاب، بعبارة أخرى ملفوظ يتميز بخصائص نصّ ية، يتميز أساسا بوصفه فعلا خَ طاب يًّا أنجز في وضعية ومقا م معين، في مقابل النصّ ، الذي ي عدّ موضوعً ا مجردا ناتجا عن فصل السياق عنه

فإذا كان النصّ كما ذهب إلى ذلك جميل حمداوي يقوم على النصّيةtextualité والعلاقات التراتبية للوحدات والمتواليات، ويتميز باستقلاله الشكلي، وتنظيمه الداخلي، فإنّ الخطاب يركز على الخطابية أو التلفظية. بمعنى أن الخطاب يرادف الملفوظ.فهو كما ذهب إلى ذلك أوليفيي ريبول (O. Reboulمجموع متسق من الجمل متماسك، يملك وحدة معنى، ويتحدث عن موضوع ما"

وحاصل القول من كل ما تقدم، إذا كان النصّ بناء لغويا مجرداً عن أطرافه التواصلية، فإنّ الخطاب ذو علاقة وثيقة بالإنجاز والتلفظ.

تعريف الخطابة

الخطابة لغة: الكلام المنثور المسجوع، واصطلاحًا: فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته والتأثير عليه، ولعل التعريف العام للخطابة أنها فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على إقناع المستمع واستمالته وجذب انتباهه، وهكذا يتبين أن الخطابة نمط من أنماط الفنون النثرية، ويتخذ صيغة إلقاء كلام شفوي منثور. وهو بذلك فن مشافهة الجماهير بطريقة إلقائية تعتمد على الإقناع والاستمالة وإثارة حماس الجمهور وبعبارة أخرى فالخطابة فن الإقناع والاستمالة مما يعني أنها تتوخى استخدام عُنصرَي العقل والمنطق، مع تركيزها على عامل العاطفة بشكل أكبر. كما .أنها اتصال في اتجاه واحد يقوم به الخطيب لتوصيل معلومات أو مفاهيم معينة لجمهور المستمعين فالكلمة المسموعة أقوى أثرًا من الكلمة المقروءة، كما أن الخطاب الفعال والمثير للاهتمام أمام جمهور غفير من المستمعين أمر شاق وصعب للغاية. والخطيب البارع يستغل خطابه فيما يريد ويوجهه إلى ما يخدم فكرته وهدفه المراد بما يوافق مقتضى الحال، مع ضرورة تدعيم كل ذلك بالحجج والبراهين والأدلة التي تثبت صدق دعواه، وتقوي موقفه، وتدعمه فيما يقصد ويريد

وفي ضوء ما ورد أعلاه يتضح أن الخطابة عُرفت بتعاريف كثيرة إلا أن أدقها هو التعريف التالي : فن مخاطبة جمهور من المستمعين واستمالتهم والتأثير فيهم وإقناعهم وحملهم على التسليم بصحة ما يقوله المتحدث. قبل أن ندخل في جوهر موضوع المناظرة التي تعتبر إحدى أرقى أنماط الخطابة،

لا بد أن نعرج – وبشكل مختصر –على أهم المراحل التاريخية القديمة والمعاصرة التي مر بها فن الخطابة، وفيما يلي سنتعرض إلى المراحل التي مر بها هذا الفن منذ نشأته في أحضان الحضارة الإغريقية مرورًا بالعصرين الأموي والعباسي إلى العصر الحديث.

2- تاريخ الخطابة علم

لم تكن الخطابة ظاهرةً كلاميَّةً حديثةَ العهدِ في حياةِ الإنسان، ولكنَّها أصيلة عميقةُ الجذورِ تضرب في أعماق الماضي السحيق، ومما لا شك فيه أن العلاقة بين المنطق والخطابة علاقة وثيقة ووطيدة، وأما الخطابة فقديمة قدم الإنسانية ويقول الباحثون أن جذورها تعود إلى عهد الإغريق القدامى لأن الفلاسفة اليونان هم أول من دوَّن علم الخطابة وجعل له أصولًا وقواعد وقوانين .

وهكذا اشتهرت أثينا بكونها معقل الفصاحة والبلاغة والإلقاء، وعُرف عن أهلها اهتمامهم بالكلمة وحسن الإلقاء، وأضحت الوظائف الراقية والمناصب السامية حصرًا على من توفرت لديهم مهارة البيان وفصاحة اللسان.

2-1-الخطابة والمنطق عند الإغريق

يعود اهتمام اليونانيين بالخطابة لارتباطها بطبيعة الحياة اليونانية التي طبعتها المجادلات الفلسفية والسياسية وشيوع الحرية الفردية والتعبير عن الرأي .وبما أن الخطابة تستمد قوتها من المنطق فلا بد من التعريج - وبشكل موجز - على نشأة علم المنطق الذي يعتبر وليد الحضارة الإغريقية أو الحضارة اليونانية حيث إن أول من كتب في علم الخطابة هم فلاسفة اليونان القدامى. عادة ما يُرجع مؤرخو الفلسفة نشأة المنطق إلى عهد الفلاسفة اليونانيين القدامى قبل الميلاد فنرى أن أغلبهم ذهب إلى أن هؤلاء الفلاسفة هم أول من استخدم التفكير الفلسفي والمنطق في طريقة الحوار كما هو متبع عند» أفلاطون « و» سقراط« وبقية فلاسفة اليونان من أجل الوصول إلى اليقين المعرفي.

2-1-1-السوفسطائية

تُعْزى بداية علم الخطابة إلى الفلسفة السوفسطائية التي ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد بأثينا، حيث نشأت على يد طائفة من المعلمين الذين احترفوا مِهْنة تعليم الناس فنَّ الكلام والبيان، وأساليب الخطابة المؤثرة والإلقاء والمناظرة والإقناع وكانوا يتاجرون بالعلم ويتنقلون من مكان إلى آخر يتقاضون أجورًا وفيرة على ما يقدمونه من تعليم. وقد كان لظهور السوفسطائيين الدور الكبير في تطور الخطابة اليونانية مما جعل الخطابة مهنة يسعى إليها من يريد البلوغ إلى المراتب العليا من طبقات المجتمع اليوناني

السوفسطائية) Sophism (كلمة يونانية مشتقة من اللفظة» سفسطة « التي تعني الحكمة والحذق، وقد أطلقها الفلاسفة على الحكمة والحذق في الخطابة أو الفلسفة وهي حركة فلسفية ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد بأثينا، وهي فلسفة تقوم على الركائز التالية:

الإقناع بدل البرهان العلمي أو المنطقي.

استخدام قوة الخطابة والبيان والبلاغة والحوار.

الإدراك الحسي والظن.

هكذا برع الفلاسفة السوفسطائيون في الجدل والخطابة واعتمدوا على الحجج والأدلة والبراهين، فكانت اللغة سلاحهم في الإثبات والتعليل والإقناع، غير أن السوفسطائية ظلت شعارًا للجدل العقيم واللعب بالألفاظ وإخفاء الحقيقة .ومن أشهر السوفسطائيين الفيلسوف »بروتاغوراس 420 – «)490 ق .م.).

كان اليونانيون يستهجنون أن يُباع العلم ولهذا السبب اتُّهِم السوفسطائيون بازدرائهم العقل والمعرفة، وبأنهم لم يستعملوا العلم لقيمته الذاتية ولم يأخذوا به على أنَّه معرفة الحقيقة، كما

اتُّهموا بأنهم استخدموا العلم للظفر بمنافع شخصية لا صلة لها بالعلم مما أثار حفيظة مجموعة من المفكرين الإغريق من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو .وعلى الرغم من كل هذه التُّهم إلا أن الفضل يعود إليهم في كونهم ساهموا في نشر العلم في أوساط اليونايين ومهدوا لعلم المنطق والأخلاق .فقد كادت الفلسفة أن تفقد بريقها لولا بزوغ جيل جديد من عمالقة الفلسفة الإغريقية وفي طليعتهم سقراط و أفلاطون و أرسطو.

2-1-2-سقراط

تمثل الحقبة التي عاش فيها» سقراط 399 – «)470 ق .م).نهاية مرحلة السوفسطائيين؛ حيث افتتح بفلسفته مرحلة جديدة شهدت ازدهار الفلسفة اليونانية .ظهر» سقراط « فغيَّر مجرى دراسة الفلسفة حيث انتقل من دراسة الطبيعة إلى اعتماد أسلوب التحليل والتركيز على دراسة الإنسان، ومن بحث في الفلك إلى بحث في السياسة والأخلاق .لذلك يُقال إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ويعني هذا أن الفلاسفة الطبيعيين الذين سبقوا» سقراط «اهتموا بالقضايا المرتبطة بالطبيعة والكون وأصل الوجود الكوني، وعندما ظهر» سقراط «غيَّر مَجرى الفلسفة فحصرها في قضايا الناس وحياتهم فاهتم بالأخلاق والقيم والسياسة بدل التحليق فيما وراءَ الطبيعة .وبذلك يكون» سقراط « قد حول التفكير الفلسفي من تفكيرٍ في الكون وعناصر تكوينه إلى بحثٍ في ذات الإنسان .ومن أهم إسهامات سقراط في مجال الفلسفة أنه أقام نظامًا فلسفيًّا يعتمد على الحوار والمنطق أساسًا لكل
الاستنتاجات.

2-1-3- » أفلاطون«

من بعد سقراط جاء أفلاطون 348 / 347 – 428 / 427 ق .م).الذي تتلمذ على يد أستاذه سقراط وجعل الفلسفة تتناول موضوعات الطبيعة والنفس والأخلاق، وقد اعتمد على طريقة الحوار لأنه يرى أن الحوار والمنهج الجدلي التحليلي هو طريق اكتشاف الحقيقة .بعد إدانة أستاذه» سقراط « بدوافع سياسية وإجباره على تجرع السمِّ، تولدت عند» أفلاطون « رؤية سياسية فلسفية جديدة قدم من خلالها الحل الأمثل لمشكلة السياسة داخل المدينة(أو الدولة) الفاضلة) Utopia (أو جمهورية» أفلاطون « كما يطلق عليها أحيانًا، وهي عبارة عن تصور لما يجب أن تكون عليه المدينة أو الدولة الحقيقية في أرض الواقع .فطالب بضرورة أن تقوم المدينة أو
الدولة الفاضلة على أسس العلم والمعرفة، ورسم صورة لطبيعة الفيلسوف السياسي أو السياسي الحكيم الذي يحكم شعبه بالعقل والفلسفة.

2-1-4-أرسطو

أرسطو 322 –384 ق .م).هو أحد تلاميذ» أفلاطون « ومعلم» الإسكندر الأكبر « إمبراطور مقدونيا، وقد أخذ» أرسطو « الفلسفة عن» أفلاطون « الذي أخذها بدوره عن »سقراط .« ويعد» أرسطو « أول من وضع أسس علم المنطق، فجعل التدليل جزءًا أساسيًّا من الخطابة وقسَّم الخطابة إلى أربعة أجزاء :المقدمة، والعرض،
والتدليل(أي إقامة الدليل)، وأخيرًا الخاتمة.
ترتكز الخطابة على أعمدة أساسية ثلاثة وضعها» أرسطو « كدعائم لفن الإقناع، وهي كالتالي:
مجال الأخلاق) Ethos (ويخص شخصية الخطيب، ومصداقيته لدى الجمهور، وقدرته على الإقناع.

مجال المنطق) Logos (ويعنى باحتكام الخطيب إلى المنطق وبواسطته يتمكن الخطيب من إقناع الجمهور من خلال معالجته للحقائق والشواهد الملموسة والتي تترك أثرها على عقولهم.
مجال العاطفة) Pathos (ويتعلق بقدرة الخطيب على إثارة عواطف الجمهور وتحريك مشاعرهم واستمالتهم.
أدى شغف» أرسطو « بالمعرفة إلى انشغاله بالبحث في وسائل ووجد أن الإنسان قادر على تكوين بناء متكامل للمعرفة عن هذا العالم من خلال قدراته العقلية .وقد يكون ذلك ما جعله يركز اهتمامه على دراسة العقل وإمكاناته
المعرفية، وهنا يتجلى دور» أرسطو « في تأسيس علم المنطق ونظرية المعرفة. المعرفة الإنسانية،

2-2-نشأة الخطابة عند العرب

بما أن جذور الخطابة متأصلة في الأدب العربي فلا بد من نبذة موجزة عن تطور هذا الفن عبر العصور .يرى بعض الكتاب والباحثين أن تطور الأدب العربي مرَّ بمراحل مختلفة يمكن تقسيمها طبقًا لتطور مراحل التاريخ، وسنتبع نفس النهج ونقسم هذه المراحل إلى : الخطابة في العصر الجاهلي، والخطابة في فجر الإسلام، والخطابة في العصر الأموي، والخطابة في العصر العباسي، والخطابة في العصر الحديث.

2-2-1-الخطابة في العصر الجاهلي

مما لا شكَّ فيه أن الشعر عند العرب في العصر الجاهلي كان أكثر ازدهارًا وشيوعًا من الخطابة، فقلة الكتابة وندرتها جعلا هذا اللون الأدبي يرقى ويزدهر، بيد أن الخطابة أيضًا نالت حظها من الاهتمام آنذاك فكانت مرآة تعكس واقع الحياة الطبيعية والاجتماعية لسكان الجزيرة العربية .وقد كان الشعراء والبلغاء فخر القبيلة ومجدها وعزها يحظون باحترام وتقدير بالغين بين أقوامهم وكانت العرب تتار مَن هو أبلغ لسانًا وأقوى بيانًا وأقوى مقدرة على الكلام المرتجل حتى يتحدث باسمها.
لقد تأثرت الخطابة في عصر الجاهلية بعاملين أساسيين أَولُهما البيئة الصحراوية وحياة الترحال والفروسية والبطولة، وثانيهما البيئة الاجتماعية التي أثرت على نمط عيش البدو الرُّحل وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم وما يُحيط بالأمة من نُظمٍ اجتماعية وقوانين القبيلة وعرف الناس كان له الأثر الكبير.
ولأن الخطابة عند أهل الجاهلية دارت فى نطاق البيئة الصحراوية التي نشأت فيها، فإنها تناولت أنواعًا مختلفة من الموضوعات البيئية والثقافية والاجتماعية والسياسية، فكانت تجسد تعصب العربي لقبيلته وفخره بنفسه وقبيلته وقومه، وكانت وسيلةً للتعبير عن البطولة والفروسيَّة، فبات الخطباء يلقونها للتحريض على القتال
أو للأخذ بالثأر، والحضِّ على الدفاع والذود عن مصالح القبيلة، وكانت أحيانًا خطابة من أجل الدعوة إلى الصلح وإرساء السلام، ومدح القبيلة، كما استخدمها بعض الخطباء للتفاخر والتباهي بالحسب والنسب والجاه والمال، أو التهنئة والتعزية، أو إصلاح ذات البين ولم الشمل، أو تعداد مناقب الأموات ...إلخ.

2-2-2-الخطابة في فجر الإسلام

على غرار العصر الجاهلي، شهد عصر فجر الإسلامِ ازدهارَ الخطابةِ ونموها وتطورها، وينبع ذلك من كونها الأداة الفعَّالة التي استخدمها الأنبياء والرسل في تبليغ دعواتهم ونشر

رسالاتهم، بالإضافة إلى كونها ارتبطت بالدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف، واعتمادها أساليب البلاغة والحجة والبرهان المقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .ونظرًا لأهمية هذا الفن وأثره البالغ في الاستمالة والتأثير والإقناع، احتلت الخطابة مرتبةً متقدمةً بين الفنون النثرية الأخرى .ويرجع هذا الازدهار إلى أن المسلمين استخدموها وسيلةً للتبليغ وإعلان تعاليم الإسلام وقيَمه ومُثُله وآدابه .وبالنظر إلى أنواع الخطابة في عصر فجر الإسلامِ فإننا نجد أن الأنواع السائدة آنذاك هي الخطب الدينية والخطب السياسية، والخطب الحربية.

2-2-3-الخطابة في العصر الأموي 132 – 41 (ه 750 – 662 / م)

لقد نالت الخطابة في العصر الأموي حظًّا وافرًا من الازدهار والنضج إلى درجة أن عديدًا من الباحثين يقولون إن فن الخطابة لم يبلغ في أي عصر من العصور ما بلغه في اللاتي سبقتها في صدر الإسلام من حيث الشكل والمضمون، فاقتبست سمات الخطابة التي سادت في فجر الإسلام، ومن ذلك ارتباطها بالدعوة إلى الإسلام، والاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية، واعتماد أساليب البلاغة والحجة والدليل .ونجد أن أنواع الخطابة السائدة آنذاك هي : الخطابة الدينية والخطابة السياسية، والخطابة الحربية

وحين امتدت الفتوحات الإسلامية واختلط المسلمون بغيرهم ممن اعتنقوا الديانات الأخرى وما تحمله من عقائد وثقافات اصطدم الدين الإسلامي بتلك الديانات، مما أدَّى إلى نشوء جدل واسع بين الإسلام وبين هذه الديانات .فقد ظهرعلم الكلام كمحاولة لمواجهة التحديات التي فرَضها البَون الشاسع بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية، وكذلك الاحتكاك بالديانات القديمة التي كانت موجودة في بلاد الرافدين على وجه التحديد، فكان ردُّ فعلِ الفرقِ الكلاميةِ السعْيُ إلى تطهير المجتمع الإسلامي من جميع صور الجدل حول العقيدة وما اعتبره المسلمون بدعًا من قِبَلِ بعضِ معاصريهم . وعمومًا كان الهدف الرئيس هو الدفاع عن العقائد الدينية بإقامة الأدلة العقلية والحجج المنطقية

ومن العوامل التي ساعدت على تطور الخطابة في العصر الأموي ظهور أوائل الفرق الدينية والكلامية .فقد شهد العصر الأموي بروز فرق كلامية اتذت البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها، ومن هذه الفرق: المرجئة والمعتزلة والأشعرية والصوفية والقدرية ، وغيرها .ويعتبر ما اصطُلح على تسميته بعلمِ الكلامِ من قبل بعضِ العلماء والباحثين البدايات الأولى لنشأةِ» الفلسفة الإسلامية .« ومن أشهر الخطباء الأمويين معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، والحجاج ابن يوسف الثقفي

ومع ظهور علم الكلام – الذي أَسس لتطورِ الفكر العربي والإسلامي – تجلَّتِ الحاجةُ إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع، وتدريبهم على محاجَّة خصومهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية وقد أفرز علم الكلام عديدًا من الاتِّجاهات والمدارس الفكريَّة التي تعاملت مع الجدل الدائر بين العقل والنَّقل على أسسٍ ومناهج متباينة ومتعارضة أحيانًا، وبلغت هذه المناهج أوجها في مواقف أبرز الفرق الكلامية في ذلك العهد :أي المعتزلة والأشاعرة الذين طالما اختلفوا حول إشكالية أولوية العقل أو النَّقل.

بهذا يكون علم الكلام قد أسس لقيام منهج جديد هو فن المناظرة الذي يعتبر بحق أرقى أساليب الخطابة التي تستند إلى أصول المنطق، وقوة الجدل، والمحاجَّة بالأدلة العقلية والحجج المنطقية، ومن ثم ارتقى هذا الفن الذي لم يكن مألوفًا من قبل عند العرب.

وفي مقدمة الألْوانِ الخطابيةِ التي ازدهرت آنذاك الخطابة الدينية فقد ظهرت في ذلك العصر حركة الزهد التي انصَبَّت على الوعظ والنصح ويضاف إليها أنواع أخرى من الخطابة الدينية من خطب المساجد والأعياد وغيرها .وازدهرت كذلك الخطابة السياسية إذ ساعدت جملة من العوامل على شيوعها، ومن ذلك الصراع على الحكم والنزاع بين الأحزاب السياسية المختلفة، بالإضافة إلى الفتوحات الإسلامية التي بلغت أوجها في عصر بني أمية حيث ظهرت الخُطب الحربية .أما النمط الثالث من الخطابة الذي راج آنذاك فهو الخطابة المحفلية التي كانت تلازم المحافل والمناسبات الاجتماعية كمجالس المفاخرة والتهنئة والتعزية والتكريم وغيرها.

2-2-4-الخطابة في العصر العباسي 656 – 132 (ه 1258 – 750 / م)

بعد الاحتكاكِ بحضاراتٍ أجنبيةٍ والاتصالِ بثقافاتِ أممٍ أخرى كالفارسية والهندية واليونانية، كان لفن النثرِ شأنٌ كبير في العصر العباسي، وازدهر ازدهارًاكبيرًا ونافس الشعر، حيث كثرت الكتابة والتأليف، وتطورت الفلسفة والفكرالإسلامي، وازدهرت العلوم اللغوية أيضًا .

ومن مظاهر تطور النثر أن اتَّسعت موضوعاته وتعدَّدت ألوانه، وظهرت تيَّارات متعددة للنثر، فظهر النثر العلمي،والنثر الفلسفي، والنثر الأدبي، والنثر التاريخي.ومن الألوان النثرية التي بلغت أوج ازدهارها في العصر العباسي فن الخطابة الذي بلغ ذروة نموه وازدهاره، وكان لظهور الفرق الكلامية – خصوصًا المعتزلة– أثر بالغ في رقي فن الخطابة، كما قام العرب بترجمة مؤلفات غيرهم من كتب الفلسفة والمنطق والخطابة إلى اللغة العربية، ومن الكتب التي تُرجمت في هذا العصر كتاب الخطابة ل أرسطو.

شهد هذا العصر بدوره ألوان الخطابة التي كانت رائجة في صدر الإسلام والعصرالأموي بعده، خصوصًا في عهد الخليفة هارون الرشيد .وأدى ازدهار مجالات الحياةالفكرية والعلمية والسياسية والاجتماعية والدينية إلى تطور فن الخطابة وفنون نثرية أخرى .ومن أنماط الخطابة التي كانت شائعة في ذلك العصر :الخطابة السياسية،

والخطابة القضائية، والخطابة الحربية، والخطابة المحفلية، والخطابة الدينية، بالإضافة إلى خطب التأبين، وخطب المدح والشكر، وخطب التحريض، وخطب الإصلاح:هذا ومن أهم العوامل التي ساهمت في نُمو فنِ الخطابة ورُقيه ما يلي:

اتساع رقعة الدولة العباسية وكثرة الفتن والثورات الداخلية والحروب والغزوات.

احتكاك العرب بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية.

الاهتمام بعلوم تفسير القرآن الكريم وجمع الحديث الشريف وتوثيق رواياته.

الاهتمام بِعلوم اللغة.

قيام المذاهب الفقهية.

ازدهار حركة الترجمة والتأليف والتدوين حيث شملت مختلف العلوم والفنون.

ظهور الزنادقة وما تطلبه ذلك من وجود الخطب الدينية للرد عليهم.

من النماذج المشعة والملهمة لخطابة العصر العباسي :خُطب عمر بن عبد العزيزوالحجاج بن يوسف الثقفي .غير أن الخطابة ضعفت في مرحلة لاحقة من العصر العباسي وذلك بسبب تفتُّتِ الدولة وقلَّة اهتمامها بهذا النوع من النثر – على غرار الألوان الأدبية الأخرى – إثر تولي الفرس والأتراك أمور الحكم بالدولة العباسية.

2-2-5-الخطابة في العصر الأندلسي 897 - 92 (ه 1492 - 711 /م)

من المؤكد أن فنَّ النثر في الأندلس اقتفى آثار نظيره قَبْله في المشرق العربيوانتقل هذا الفن بعد ذلك إلى أعلام الأندلس الذين أبدعوا فيه واستحدثوا فيموضوعاته وأساليبه، ولم يقتصروا على تقليد منهج أهلِ المشرق ومحاكاته .فقداتَّسع فنُّ النثر على يد الأندلسيين الذين تفننوا في هذا المجال بأسلوب قصصي فيه كثير من الطرافة، واستخدام الأمثال والحكم، وتدعيم النثر بالشعر والاقتباس من القرآن الكريم.

من أهم فنونِ النثرِ الأندلسي الخَطَابَةُ الأنْدلسيَّة التي كانت ضرورةً تقتضيها ظروفُ الفتحِ والحكمِ وتسيير شؤون البلاد، فاحْتلَّت مكانة مرموقة في الأندلس فتعدَّدت أنواعها وتنوَّعت موضوعاتها .ومن العوامل التي أدت إلى نهضة الخطابة وازدهارها في الأندلس الحروب والصراعات التي كانت منتشرة آنذاك، فعندما دخل العرب الأندلس كانت الخطابة وسيلةً فعالةً في الحثِّ على الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار، فاستدعت الحروب والغزوات التي قام بها العرب المسلمون إبَّان فتح الأندلس الاهتمام بفنِّ الخطابة التي لعبت دورًا أساسيًّا في تجييش الجيوش واستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله، وحثِّ الجنود على القتال والشجاعة

والثبات، وإقناع الناس بطاعة وُلاة الأمر.

كانت الخطابة في الأندلس ضرورة تقتضيها ظروف الحروب والمناسباتالسياسية والدينية المختلفة، فتنوَّعت موضوعات الخَطَابَةِ الأنْدلسيَّة فشملت المجالات السياسية والاجتماعية والدينية، واستخدمت في مختلفِ المحافل في قصورالأمراء والولاة وفي استقبال الوفود، والمناسبات المختلفة .اتَّسمت الخطابة في تلك الفترة بسهولة العبارة، ووُضوح المعاني، والإيجاز والبلاغة، والبعد عن السجع والتكلف والإسهاب المخل والتكرار غير المفيد.

2-2-6-الخطابة في العصر الحديث

دخلت الخلافة العباسية مرحلة التقهقر والتراجع لاحقًا، ومع نهاية العصرالعباسي بدأت مرحلة في تاريخ الأدب العربي أطلق عليها مصطلح الانحطاط وهي تسمية استُحدثت عند بعض النقاد والمؤرخين لتوصيف تأخر الحياة الأدبية والفكرية والعلمية .وتتزامن هذه المرحلة مع الفترة الزمنية التي تقع بين تاريخ سقوط بغداد سنة 656 ه 1258 /م على يد التتر المغول وتاريخ حملة نابليون بونابرت على مصرسنة 1212 ه 1798 /م، مرورًا بعصر المماليك 648 (ه 1250 /م 922 - ه1516/م)، والحروب الصليبية خلال القرنين 11و 14 ، وصولًا إلى الدولة العثمانية922 (ه 1516 /م 1336 – ه 1917 /م.)

كانت لهذه الغزوات والظروف السياسية والاجتماعية انعكاسات بالغة الأهمية في شتى مجالات الحياة، فقد واجهتِ العالمَ العربي آنذاك موجة من الركود والجمود والتردي اكتسحت كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية وشهدت المنطقة العربية انحطاطًا غير معهود فذبلت الحياة العلمية والثقافية، ولم يسلم الأدب العربي الذي شهد بدوره ركودًا وخمولًا منقطعي النظير، ولهذا السبب يصف النقاد والمؤرخون ودارسو الأدب العربي أدبَ هذا العصرِ بأدبِ الانحطاط؛ حيث طغت على هذه الفترة مظاهرُ التنميق والتصنع والمبالغة في استخدام المحسنات اللفظية والبديعية من سجع وطباق وجناس وغير ذلك، وانحصرت اللغة العربية الفصحى في أوساط المثقفين وأهل العلم.

مع حلول العصر الحديث بدأت حركة انبعاث في الأدب العربي الحديث أثَّرت على الشعر والنثر معًا، وأدت إلى لون من النضج والازدهار وأخذت الخطابة منحى جديدًا واتسع مجالها فعرفت ألوانًا جديدة تُساير تطور الحياة الاجتماعية، والمُستجدات السياسية، والتقدم العلمي

في مختلف المجالات .ومِن ثَم تَنوعت موضوعات الخطابة وأساليبها إثر قيام الحركات الوطنية، وتأسست المنابر السياسية والثقافية والجمعيات والنوادي الأدبية، وازداد انتشار الخطابة في المناسبات القومية والحزبية والسياسية، والمؤتمرات المحلية والدولية .وكان من أظهر عوامل هذه النهضة في النثر الحديث ظهور لون جديد من الكتابة المرسلة المتحررة من قيود السجع وصنعة الجناس وقيود البديع، وانتقلت الخطابة بدورها من الاعتماد على سحر البيان إلى الإقناع والاستدلال المنطقي وأصبحت بذلك تتحرر من مظاهرالتصَنُّع والتنميق.

سادت بين الكتاب والخطباء أساليب من الفصاحة والبلاغة والبيان تحررت من التكلف والصنعة وكان من أقطاب هذه المدرسة :شكيب أرسلان في مؤلفاته الأدبية، ومحمد عبده في كتاباته الدينية والاجتماعية، ومصطفى كامل في خطبه الوطنية والسياسية .وبعد هذا الجيل ظهر جيل ثانٍ كان أكثر تأثرًا ببواعث النهضة الفكرية والثقافية التي تركت سِماتها في الأدب العربي الحديث كان من أشهر أقطابه محمد حُسَيْن هيكل، وعباس محمود العقَّاد، وطه حسين.

كان للخطابة دورٌ بارز في مواجهة الاستعمارِ وتأجيجِ الثوراتِ الاستقلالية وتوجيهها نحوَ التحررِ والتمسكِ بالمبادئِ الوطنية فبرَزَ عددٌ من الخطَباءِ في هذا المجال في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أشهرهم عبد الله النديم ومصطفى كامل ومي زيادة في مصر . وفي بلاد الشام ظهر عدد من الخطباء الذين أثروا على الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية . كما لعبت الخطابة دورًا مهمًّا على الصعيدين الأدبي والاجتماعي في طرح ومعالجة قضايا كبرى مثل التعليم وتحرر المرأة. ومن العوامل الحاسمة في تطور الأدب العربي الحديث وخصوصًا النثر – بما في ذلك فن الخطابة – وخروجه من حالة التدهور والتخلف والركود ما صاحب النهضة الأدبية في العصر الحديث، مثل :فتح قنوات التواصل الفكري والثقافي مع الغرب عن طريق التعليم والبعثات العلمية، وحركة الترجمة، والطباعة، والمكتبات، والصحافة، وما إلى ذلك من وسائل ثقافية وفكرية.

3-خصائص الخطابة

فالخطابة ملكة فطرية يمكن تنميتها عن طريق التحصيل وتطويرها بالتمرس والمران، كما أنها تتبلور بالمعاودة والمراجعة والتجربة، وأصول فن الخطابة ثلاثة وهي

كما يلي:

استعدادات خاصة تتعلق بالإلمام بالقواعد التي تقوم عليها الخطابة.

التدريب والتمرس والمران.

الاطلاع على نماذج ناجحة من الخطب ودراستها.

وللخطابة خصائص أساسية عامة تشترك فيها كل أنواع الخطب بصرف النظر عن طبيعتها، سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية إلى غير ذلك، ومعرفة هذه الخصائص أمر ضروريٌّ يعين في ممارسة الخطابة والتدرُّب عليها .وثمة ثلاثة عناصر أساسية للخطابة وهي:

المنطق

الحجة

الدليل

وصنعة الخطيب أن يمزج هذه العناصر بصورة من البراعة والإتقان والإبداع. من سمات الخطابة أنها تشتمل على عناصر تأثيرية، وأنها تعتمد على المنطق والحجة والدليل سبيلًا لإقناع المخاطبين واستمالتهم وإثارة عواطفهم، وتتسم بوضوح العبارة ومراعاة المقام ومقتضياته ووضوح الفكرة وجودة العبارة وسلامة الألفاظ، وقد
تستعمل فيها أساليب متنوعة بقصد إيصال المعلومة للمخاطب والتأثير فيه .وللخطابة أيضًا أصولٌ ومقوماتٌ أساسية تتصل بالخطيب بصورة مباشرة مثل :المعرفة والأسلوب والإلقاء المحكم، أما المعرفة فتعني :ما يمتلكه المتحدث من عمق ودراية وإدراك وفهم للموضوع، وأما الأسلوب فيتشخص في قابليته على صياغة حديثه بأسلوب يلتزم بقواعد اللغة من نحو وبلاغة وجودة في الطرح والصياغة، وأما الإلقاء المحكم فيمثل لب الخطابة والأداة التي تمكن الخطيب من تقديم ما أعده من أفكار بأنجع الأساليب وأيسرها وصولًا إلى المستمع، ولا يكون ذلك إلا بإتقانه لفنون الخطابة من تلوين صوتي وجمال أسلوبي، وعناية بالتعابير العاطفية من سخرية وإعجاب واستغراب وإثارة للحماس والاستنفار وغير ذلك من أساليب الإثارة والتشويق، وعليه أن يتجنب في المقابل عيوب الخطاب، مثل :التأتأة والتردد والتكرار الممل الذي لا طائل منه.
ولأن الخطابة تعتمد على الإلقاء والمشافهة، فهذا يقتضي هيئة معينة للخطيبيتمثلها في حديثه وتتجلى في جهارة الصوت وجمال العبارة وقوة الحجة والبرهان والقدرة على التأثير، وقد يصاحب ذلك الوقفات المتنوعة واستخدام تعابير الوجه والإيماءات والإشارات باليد وغيرها من الإشارات غير اللفظية إلى غير ذلك من لوازم الخطاب الإقناعي والتأثيري الذي يبرهن على صحة ما يقوله المتحدث، وصواب ما يذهب إليه .أما إذا خلت الخطابة من هذه الأمور فإنها لا تتعدى أن تكون إبداء للرأي وإعلانًا عن مزاعم بحتة تفتقر إلى الأدلة والبراهين التي تثبتها، مما يجعلها مضيعة للوقت والجهد وسببًا في نفور المستمعين.
ولأنَّ الخطابة تتوخَّى استمالة المستمعين وإقناعهم، فإنها ترتكز على أمرَين أساسيَّين :العلم، والموهبة .وهذا يستلزم أن يكون الخطيب على علمٍ بأساليب الاستمالة وكيفية توجيه عواطف الناس وعقولهم ومشاعرهم إلى المُبتغى .إن الخطيب الناجح هو الذي يخاطب الناس بما يعقلونه، ويُحدِّثهم بما يفهمونه ويسوق إليهم من الأفكار والمعاني ما يناسب تفكيرهم ومستوى ثقافتهم وأحاسيسَهم وانفعالاتِهم، ولكن تأثير الخطيب في سامعيه ليس بالعلم فقط والإلزام بالدليل والبرهان، بل مَردُّه إلى إثارة العواطف ومخاطبة الوجدان .ويمكن تلخيص أبرز مكونات الخطابة الجيدة في الآتي:
وضوح العبارة في الخطاب ووضوح معانيها :بحيث يكون الغرض الذي يهدف إليه المتحدث مفهومًا، فلا يصح أن يستعمل المتحدث كلمات لغوية غامضة المعنى أو غريبة على بيئة المخاطبين، أو فوق مستوى أفهامهم، فخطاب المثقفين أو الأكاديميين يختلف عن خطاب عامة الناس وبسطائهم؛ لذا قد نلجأ في خطابنا إلى استخدام بعض المفردات والعبارات العامية إذا اقتضى الحال ودعت الضرورة، على أن يكون هذا في أضيق الحدود.
الاستشهاد بالأمثلة الحية والأحداث التاريخية والاستعانة بالأرقام والإحصاءات لبيان صحة ما يقوله المتحدث وتزكية موقفه، بشرط أن لا تكون هذه الأمثلة كثيرة تشتت ذهن السامع، وتبعده عن الغرض الأصلي للخطاب.
التهيئة قبل الإلقاء :ونعني بذلك تحديد هدف الفريق وصياغته، وبيان الموقف الذي يسعى أفراده لإثباته من خلال خطابه؛ الأمر الذي يسهِّل عليه استمالة الجمهور وإقناعهم بما يريد.

تجميع العناصر وترتيبها :بعد تحديد الهدف وبيان موقف الفريق يأتي دور تجميع العناصر التي توضح هذا الموقف وتبرزه بصورة منظمة ومنطقية من شأنها إقناع السامع وجذبه، وإثارة حماسته إلى ما يطرحه المتحدث ويسعى لإثباته.
تحديد العناصر التي سيتطرق إليها المتحدث حتى تكتمل الفكرة، وينتهي الفريق من توضيح موقفه، ويصل المقصود إلى عقل السامع وفهمه.
استحضار الأدلة :يجب على المتحدث أن يستحضر الأدلة التي تدعم حججه ويقنع بها السامعين، ويقاس صدق وقوة ما يقوله بقدرته على إيراد أدلة منطقية تترق أذهان السامعين وتؤثر فيهم بقصد إقناعهم.

4-الإثارة والتشويق في الخطاب

يعد التشويق من العناصر المهمة في الإلقاء، وهو أحد أسرار التأثير في مخاطبة الجمهور لأنه عامل حاسم في جذب المستمع والتأثير فيه؛ وله وسائل عدة منها:
التواصل البصري واستخدام لغة الجسد :ولا يتحقق ذلك إلا بإلقاء الخطاب لا قراءته؛ فالإلقاء يؤثر تأثيرًا كبيرًا في السامعين ويشد انتباهم لكلام المتحدث، كما أنه يتيح للمتحدث التواصل البصري مع السامعين، ويمكنه
من التحكم بلغة جسده واستخدام جوارح مهمة كالعينين واليدين، وهي أمور لا يتيسر استخدامها في أثناء القراءة المستمرة .وهذه المهارة تكتسب تدريجيًّا بالدُّربة والمراس، وتحتاج من المتحدث التأني في البدء وعدم العجلة
والإسراع.
طرح التساؤلات :هذا الأسلوب يثير الاهتمام عند السامع ويشد انتباهه، لأن هدفه ليس انتظار الإجابة، بل إثارة التفكير ولفت الانتباه.
استخدام أدوات التنبيه :أدوات التنبيه مثل» ألا « و» أما « وغير ذلك عوامل تشدُّ انتباه السامع، وتثير تفكيره واهتمامه.
تكرار المفردات والجمل والعبارات :مثل هذا التكرار يوجِد اهتمامًا لدى المُخاطَب، ويغريه بالاستماع للخطاب ويشعره بأهمية ما يقوله المتحدث.
استخدام عبارات مثيرة وشائقة تُبيِّن أهمية الموضوع وتربط المُتلقي به :ومن أمثلة ذلك أن يقول المتحدث :سأحدثكم اليوم عن أمر في غاية الأهمية، يهمالصغار والكبار، رجالًا ونساء ....، فهذا الأسلوب يشدُّ انتباه المُتلقي ويثير فضوله.
تأخير الإعلان عن بعض المعلومات بغية توضيحها والتوكيد عليها :إن تأجيل الإعلان عن بعض المعلومات المهمة وتأخيرها عن المستمعين بقصد إبراز أهميتها وبُغية توضيحها يُعد أمرًا لافتًا لنظر السامعين وجاذبًا لانتباههم، كما يدل على قوة المعلومة وعمق أثرها ومثال ذلك أن يقول المتحدث» :أيها الجمهور المُوَقَّر، لا أستطيع أن أخفي عنكم هذه الأرقام المروِّعة لضحايا التدخين في بلادنا « ...ثم بعدها يسكت قليلًا، ثم يستمر ويقول» :هل تدركون أن عدد ضحايا التدخين في بلادنا قد تجاوز عتبة38%...
لهذه الاعتبارات يتعين على الخطيب إجادةَ قواعدِ الخطابةِ والاستشهادِ ولفتِ أنظارِ المستمعين وجذبِ انتباههم للمسألةِ قيدَ التناظر، فلا يطيل إطالةً مملةً، ولا يختصر اختصارًا مخلًّا .ولكي يتحقق الإقناع والتأثير في الجمهور المتلقي لا بد من توفر مواصفات في النص وفي من يلقيه .وقد اهتم المختصون بشؤون الخطابة بسمات الخطيب، وشروط الأداء أو الإلقاء، ومواصفات النص الملقى، فمن سمات الخطيب:

جهارة الصوت.
جمال الهيئة.
حُسن النبرة.
سلامة جهازه الكلامي من العيوب.
حسن الإلقاء وتوزيع مواضع الوقف والوصل توزيعًا جيدًا.
لغة الجسد المعتدلة البعيدة عن أي حركات مثيرة أو مشينة.
وأفضل الخُطَب يمكن أن يُفسدها أسلوبُ إلقاءٍ هزيلٍ وغير مناسبٍ، فالخطاب يتطلب تفاعلًا صادقًا وكاملًا بين جسم المتحدث وعقله من جهة وما يقول من جهةٍ ثانيةٍ، والخطيب الماهر من يستطيع الموازنة والتحكم الجيد بلغةِ جسدهِ ونبراتِ صوتهِ وتواصلهِ البصري وقسماتِ وجههِ، وهذا يتطلب مراعاة قواعد معينة، والتدرُّب على
الخطابةِ والإكثار من ممارستها.
قد يقضي المرء وقتًا طويلًا في البحث عن المعلومات المتعلقة بموضوع الخطابة وفي إعداد الإطار العام لحديثه؛ إلا أنه يخفق في اتاذ أسهل خطوة وأيسر سبيل من سبل التحضير للخطابة وهي التدرُّب على الإلقاء، وقد يتخوف المرء من أن يتحول مثل ذلك التدرُّب على الإلقاء من عملية اتصال صادقة إلى مجرد عملية» أداء « فقط أو» موقف تمثيلي« ؛ من هنا وجب التوكيد على أن الأداء يجب أن يكون طبيعيًّا، وأن يكون انعكاسًا أمينًا لشخصية المتحدث، كما علينا أن ندرك أن التحدث إلى الجمهور له أسلوبه الخاص، وأن هدف الاتصال هو نقل أكبر قدرٍ من المعلوماتِ بشكلٍ فعَّالٍ ومؤثرٍ.
المصادر والمراجع

أرسطو: فن الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2008م

أميمة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2010م

أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2010م

أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مطبعة العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م

جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العام، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م

د عبد اللطيف سلامي،مراجعة واشراف د حياة عبد الله معرفي ، المدخل إلى فن المناظرة ،دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر الدوحة، دولة قطر، الطبعة العربية الأولى 2014

علي سامي المشار: نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج1،ط9،دار المعارف، القاهرة،

الهادي الفضبلي:خلاصة علم الكلام، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية،اللجنة الدائمة لمنهج الكتب،دار المؤرخ العربي ،بيروت ،لبنان ،ط1414،2هـ،1993م.

محمود الشافعي:مدخل إلى دراسة علم الكلام، منشورت إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي ،باكستان ،ط2 ،1422هـ /2001م

يمنى منى طريف الخولي: الطبيعيات في علم الكلام،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر،2014م.

ابن خلدون: المقدمة.

حسن حنفي وآخرون، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، دار الفارس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط - 1 ، 1995